ملامح

من الحياة الاقتصادية والاجتماعية

والثقافية في مصر الفاطمية

إعداد

الدكتور / يحي بن حمزه الوزنه السليماني

تمهيد

دخول المعز لدين الله القاهرة

اتخذ جوهر الصقلي * منذ أن وضع أساس [(١)] مدينة القاهرة في التمهيد لاتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية ، فمنع إقامة الدعوة للخلفاء العباسيين التي تقام بمساجد مصر وأقامها للخليفة المعز لدين الله وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي [(٢)] بدلاً من اسم الخليفة العباسي ، وعلى أحد وجهيها : ((دعا الإمام معد بتوحيد الإله الصمد)) وفي السطر الثاني : ((المعز لدين الله أمير المؤمنين)) وفي السطر الثالث : ((ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة)) وعلى الوجه الآخر : ((لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين)) .

قام جوهر الصقلي أيضاً بمنع لبس الناس السواد وهو شعار العباسيين [(٣)] ، وزيد في الخطبة العبارة الآتية : ((اللهم صل على محمد النبي المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين ، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين)) [(٤)] .

---

* هو جوهر بن عبد الله الرومي أبو الحسن القائد بأني مدينة ((القاهرة)) و ((الجامع الأزهر)) كان من موالى المعز العبيدي ((صاحب إفريقية)) وسيره من القيروان إلى مصر ، بعد موت كافور الإخشيدي فدخلها سنة ٣٥٨هـ وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليها مكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم مولاه المعز سنة ٣٦٢هـ فحل المعز محله وصار هو من عظماء القواد في دولته وما بعدها إلى أن توفى بالقاهرة سنة ٣٨١هـ / ٩٩٢م . وكان كثير الإحسان ، شجاعاً لم يبق بمصر شاعر إلا رثاه .

(١) الدكتور محمد جمال الدين سرور — السيادة الفاطمية في مصر ٦٩ — دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٦٤م

(٢) المقريزى — اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ١٦٤ – ١٦٥ — تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٤٨م

(٣) الدكتور حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ١٦٥ — النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٦٦م

(٤) المقريزى — اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ١٦٦ — تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٤٨م

وهى من العبارات التي يتصف بها الأذان عند الشيعيين ، ولم تلبث هذه التغييرات الدينية التي أدخلها جوهر الصقلي رغبة في نشر الدعوة الفاطمية لقيت كثيراً من النجاح مما سر القائد جوهر ، منبعث للمعز يخبره بما لقيته دعوته من تأييد (٥) وقبول .

بعد أن استقر سلطان الفاطميين في مصر أرسل جوهر إلى المعز يستدعيه ليتقلد زمام الحكم في البلاد (٦) فلما أدرك المعز أن قوة نفوذه وسلطته قد توطدت في مصر ، فتعجل على الرحيل إليها ، فمنح يوسف بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى (٧) إفريقية والمغرب (٨) وخرج من مدينة المنصورية (٩) في شهر شوال سنة ٣٦١هـ متوجهاً إلى مصر ، يرفقه كثيراً من أتباعه وجمع كبير من رجالات دولته ، من بينهم أولاده واخوته وأعمامه ، كما جلب معه رفات آبائه * ((عبيد الله المهدى (١٠) ـ القائم (١١) ، المنصور (١٢))) وفضلاً عن ذلك فإنه كان في ركابه خمسمائة (١٣) حمل من الأموال التي أخرجها من قصور آبائه وقد تابع المعز سيره ماراً ببرقة حتى دخل الإسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢هـ فاستقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم قاضى مصر ،

(٥) الدكتور محمد جمال الدين سرور — الدولة الفاطمية في مصر ٦٩

(٦) الدكتور حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسي جـ٣ ١٧٠

(٧) الدكتور محمد جمال الدين سرور — المرجع السابق ذكره ٦٩

(٨) ابن الأثير — الكامل في التاريخ جـ٨ ٢٠٥
طبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠م ـ تحقيق إحسان عباس

(٩) الدكتور حسن إبراهيم حسن — المرجع السابق ذكره جـ٣ ١٧٢

* المقريزى — اتعاظ الحنفا جـ١ ١٨٦

(١٠) هو عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم الفاطمي العلوى من ولد جعفر الصادق مؤسس دولة العلويين في المغرب وجد العبيديين الفاطميين أصحاب مصر وأحد الدهاة في نسبه خلاف ولد سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٣م ومات سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م .

(١١) هو محمد بن عبيد الله أبو القاسم القائم بن المهدي العبيدى الفاطمي صاحب المغرب ويسمى نزارا ولد سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م ومات سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٦م .

(١٢) هو إسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي أبو الطاهر بنصر الله ثالث خلفاء الدولة الفاطمية العبيدية بالمغرب مولده بالقيروان سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤م ومات سنة ٣٤١هـ / ٩٥٣م .

(١٣) الدكتور حسن إبراهيم حسن — الفاطميون في مصر ٢٥
النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٣٧م

وجلس الخليفة عند منارة الإسكندرية حيث ألقى خطبة قال فيها [١٤] : ((إنه لم يدخل مصر طمعاً في زيادة ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج والجهاد ضد الكفار ، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل بما أمر به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وعظ الحاضرين ، وخلع على القاضي في أواخر شعبان من هذه السنة . فوصلها في يوم الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ دون أن يمر على مدينة مصر . وكان أهلها قد أعد الزينة [١٥] على جانبي الطريق ظناً منهم أنه سيزورها ـ وسار متجهاً إلى القصر الشرقي الذي بناه له جوهر ، ولم يكد يصعد إلى إحدى ردهاته حتى سجد شكراً لله تعالى وصلى ركعتين [١٦] . وفي اليوم التالي لوصوله خرج أشراف مصر وقضاتها وأعيانها ورجال العلم فيها لتهنئته والاحتفاء به ، ثم أخذ جوهر بعد ذلك يقدم إليه الناس طائفة بعد أخرى [١٧] .

لقي المعز بالقاهرة كثيراً من مظاهر الترحيب [١٨] ، فقدمت إليه الهدايا والتحف بعد أن استقر هو وأسرته وأتباعه بالقصر الشرقي ، وقد اشتملت هدية القائد جوهر [١٩] التي قدمها إلى مولاه المعز على : مائة وخمسين فرساً مسرجة ، ملجمة ، بعضها مذهب ، وبعضها مرصع والبعض الآخر معنبر ، وإحدى وثلاثين قبة على نوق بخاتى بالدبياج والمناطق والفرش ، وثلاث وثلاثين بغلة ، وكان منها سبعة مسرجة ملجمة ، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدة للنقل . وكانت الهدية تشتمل أيضاً على أربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ، ومائة سيف محلاة بالذهب والفضة وشاشية مرصعة في غلاف وتسعمائة آنية فيها طرائف مختلفة [٢٠] ، انتخبها جوهر من ذخائر مصر [٢١] .

---

(١٤) ابن خلكان — وفيات الأعيان جـ ٢ ١٣٤
بولاق ـ القاهرة ١٢٨٣هـ

(١٥) الدكتور عبد المنعم ماجد — الفاطميين ـ نظمهم ٣٥
دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٢م

(١٦) الدكتور محمد جمال الدين سرور — المرجع السابق ذكره ٧٠

(١٧) المقريزى — اتعاظ الحنفا جـ ١ ١٧٦ و ١٨٨

(١٨) الدكتور محمد جمال الدين سرور — الدولة الفاطمية في مصر ٧١

(١٩) الدكتور حسن إبراهيم حسن — جوهر الصقلي ٢٥
النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٥م

(٢٠) الدكتور جمال الدين الشيال — تاريخ مصر الإسلامية جـ ٢ ٣٥
دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٦م

(٢١) الدكتور حسن إبراهيم حسن — الفاطميون في مصر ٥١

أيضاً قام أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني [٢٢] بتقديم هدية للمعز وهي أحد عشر سفطا من متاع تونة ((قرية قديمة كانت على مقربة من تنيس ودمياط)) وتنيس ((مدينة قديمة كانت تقع على جزيرة في بحيرة المنزلة ، ولها أهمية كبيرة في تاريخ الصناعات الإسلامية)) [٢٣] ودمياط ، وخيل وبغال ، وقال : كنت اشتهي أن يلبس منها المعز لدين الله ثوباً ، أو يتعمم بالعمامة التي فيها ، فما عمل لخليفة قط مثلها [٢٤] .

ولما انتهى المعز لدين الله من تقبل [٢٥] الهدايا والتحف التي أهديت إليه ، أمر بإطلاق سراح المعتقلين من الإخشيدية والكافورية الذين اعتقلهم جوهر ، كانوا نحو الألف [٢٦] .

وأصبحت ولاية مصر بعد قدوم المعز لدين الله إليها دار خلافة [٢٧] بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب ، كما حلت القاهرة محل المنصورية [٢٨] وغدت عاصمة للدولة الفاطمية ، على أن انتقال المعز إلى مصر كان له أثره في بلاد المغرب إذ ضعف نفوذ الفاطميين في هذه المنطقة واستقل بولاياتها بعض الأمراء ولم يأت منتصف القرن الخامس الهجري حتى تقلص منها الحكم الفاطمي وكانت أمر ولاية مصر قد أسندها المعز إلى جوهر [٢٩] بعد الفتح ، فأقر الوزير جعفر بن الفرات [٣٠] في منصبه ، كما أبقى على الموظفين المصريين في وظائفهم وأشرك مع كل موظف مصري موظفاً أخر من المغاربة [٣١] وصار جوهر يشرف على إدارة الدواوين وجباية الخراج حتى أوائل سنة ٣٦٣هـ حيث تسلم المعز منه دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في أحوالها .

---

(٢٢) المقريزى — اتعاظ الحنفا جـ ١ ١٨٩

(٢٣) زكى محمد حسن — كنوز الفاطميين ٣٣ القاهرة ١٩٣٨م

(٢٤) الدكتور محمد جمال الدين سرور — الدولة الفاطمية في مصر ٧١

(٢٥) الدكتور حسن إبراهيم حسن — جوهر الصقلي ٨٥

(٢٦) الدكتور حسن إبراهيم حسن — الفاطميون في مصر ١٤٥

(٢٧) الدكتور حسن إبراهيم حسن — المعز لدين الله ١٦٠ النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠م

(٢٨) المقريزى — اتعاظ الحنفا جـ ١ ١٦٨

(٢٩) المقريزى — المصدر السابق ذكره جـ ١ ١٦٨

(٣٠) المقريزى — المصدر السابق ذكره جـ ١ ١٦٨ – ١٧٠

(٣١) الدكتور حسن إبراهيم حسن — المعز لدين الله ١٧٥

حقاً استأثر المعز [٣٢] بالنفوذ والسلطان في مصر ولم يشأ أن يترك لجوهر من السلطة ما يساعده على الانفراد بالحكم ، بل أبقاه بجانبه يشير عليه بما تتطلبه أحوال البلاد ، وما لبث أن صرفه عن بعض المناصب الإدارية وأسندها إلى يعقوب بن وعسلوج كلس بن الحسن وبذلك فقد جوهر ما كان يتمتع به من نفوذ .

---

(٣٢) ابن ميسر تاريخ مصر ٤٥
طبعة هنرى ماسيه Heunri Masae
القاهرة ١٩١٩م

تأسيس مدينة القاهرة

أدرك جوهر الصقلي بعد أن نجح في ضم مصر إلى حوزة الفاطميين أن يشرع في بناء مدينة جديدة تكون مقراً للخلافة الفاطمية ومركزاً لنشر دعوتها الدينية وعدل [٣٣] عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له .

ووضع جوهر الصقلي أساس المدينة التي عزم على إنشائها شمالي الفسطاط في ليلة [٣٤] ١٧ رمضان سنة ٣٥٨هـ ، كما وضع في الليلة التالية أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز ، وعرف هذا القصر باسم القصر الشرقي الكبير [٣٥] ، ثم أقام حول تلك المدينة وقصر الخليفة سوراً كبيراً .

سمى جوهر مدينته الجديدة اسم المنصورية [٣٦] تقرباً إلى خليفته المعز بإحياء وتخليد ذكرى والده المنصور ، وظلت تعرف بذلك حتى قدم المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر بعد أربع سنوات فسماها القاهرة [٣٧] تفاولاً بأنها ستقر الدولة العباسية المنافسة ، وقيل أيضاً أنها سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ منها ، وحاول الخروج على أميرها [٣٨] ، كما قيل أن اسم القاهرة مأخوذ من قول المعز وهو يودع جوهر أمام جمع من مشايخ كتامة الذين وجههم معه . ((والله لو خرج جوهر هذا وحده ، لفتح مصر ... ولينزلن في خرابات بن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة ، تقهر الدنيا)) [٣٩] .

---

(٣٣) الدكتور حسن إبراهيم حسن جوهر الصقلي ٧٥

(٣٤) المقريزى اتعاظ الحنفا جـ ١ ١٥٧ – ١٥٨

(٣٥) الدكتور زكى محمد حسن كنوز الفاطميين ٤٣

(٣٦) الدكتور محمد جمال الدين سرور الدولة الفاطمية في مصر ٦٥

(٣٧) المقريزى المصدر السابق ذكره جـ ١ ١٥٨

(٣٨) الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ٥٢٨– ٥٢٩

(٣٩) المقريزى اتعاظ الحنفا جـ ١ ١٦٢

شيد جوهر بسور القاهرة [٤٠] : أربعة أبواب وهى : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب زويلة [٤١] ، ويعرف أحد هذين البابين الأخيرين باسم باب القوس ، وقد مر منه المعز عند قدومه إلى القاهرة ، وصار الناس يتبركون بالمرور به ، أما الباب الثاني فقد تشاءم منه الناس وهجروه [٤٢] وكانت القاهرة وقت إنشائها تحد من الشمال بموقع باب النصر ، ومن الجنوب بموقع باب زويلة وما يليه ، وتحد شرقاً بموقع باب البرقية وباب المحروق المشرفين على المقطم ، وتعرف هذه المنطقة في وقتنا هذا بحي الدراسة ، وتحد غرباً بباب سعادة وما يليه حتى شاطئ النيل [٤٣] .

بناء جامع الأزهر

كان بمصر قبل الفتح الفاطمي ثلاثة مساجد جامعة ، هي : جامع عمرو بن العاص الذي أسس سنة ٢١ هـ وسمى في عهد ازدهاره تاج الجوامع ، ثم عرف بعد أن تقادم به العهد بالجامع العتيق ، ويقع شمالي حصن بابليون الذي كانت تقيم فيه حامية الروم وقت الفتح الإسلامي ، ولما أصبحت مصر تابعة للخلافة العباسية ، بنى واليها الفضل بن صالح [٤٤] سنة ١٦٩هـ مسجد العسكر بجوار دار الإمارة ثم بنى أحمد بن طولون [٤٥] بعد أن استقل بولاية مصر سنة ٢٦٣هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر في الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية ، والجهة الشمالية من العسكر .

(40) Stonley lone – Poole

A History of Egypt in the Middle P. 152

(٤١) القلقشندى صبح الأعشى جـ ٣ ٣٥٢
القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٧م

(٤٢) المقريزى الخطط جـ ١ ٣٦١ – ٣٦٢ و ٣٨٠
طبعة بولاق ١٢٧٠هـ

(٤٣) الدكتور محمد جمال الدين سرور المرجع السابق ذكره ٦٦

(٤٤)

(٤٥)

وكانت هذه المساجد الثلاثة تعتبر رمزاً (٤٦) لسيادة الإسلام الروحية ومنبراً للدين الجديد ، فجامع عمرو بن العاص كان يمثل ظهور الإسلام في مصر وانضواء تلك البلاد تحت الحكم العربي ، أما جامع العسكر فإن تأسيسه إلى جانب جامع عمرو بن العاص أكبر دليل على نجاح الدعوة العباسية في مصر وانضمام تلك البلاد إلى حوزة العباسيين ، كذلك الحال فيما يتعلق بجامع أحمد بن طولون ، صفوة القول إن إقامته ترجع إلى الرغبة في إظهار الدولة الطولونية وسيادتها .

ولما شيد جوهر (٤٧) مدينة القاهرة في نفس الليلية التي دخل فيها مدينة مصر رأى ألا يفاجئ السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي خشية إثارة حفيظة المصريين عليه ، ومن ثم أسرع على بناء مسجد يكون رمزاً لسيادة الدعوة الفاطمية ، كما كانت القاهرة رمزاً لسيادة الفاطميين على مصر ، فشرع في بناء الجامع الأزهر في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ / ٧٩٠م وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م (٤٨) وقد سمى هذا الجامع في بادئ الأمر بجامع القاهرة (٤٩) نسبة إلى العاصمة الجديدة التي أنشاها جوهر . وهناك ما يدل على أن هذه التسمية هي التي كانت تغلب عليه طوال العصر الفاطمي ، وذلك أن كثيراً من المؤرخين (٥٠) هذا العصر يذكرونه دائماً باسم جامع القاهرة ، أما تسميته بالجامع الأزهر ، فيبدو أنها أطلقت عليه في عصر العزيز بعد إنشاء القصور الفاطمية التي كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة .

وقال آخرون : إنما سمى بذلك لما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بإزدهار العلوم فيه ، على أنه ليس ببعيد أن يكون الفاطميون الذين ينتسبون إلى فاطمة الزهراء [٥١] بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء ، وقد استمر هذا الجامع يعرف بهذين الاسمين حتى عصر المقريزى [٥٢] في أوائل القرن التاسع الهجري ، ثم تلاش الاسم القديم وغلب عليه اسم الجامع الأزهر .

---

(٤٦) الدكتور محمد جمال الدين سرور تاريخ الدولة الفاطمية ٦٧
(٤٧) المقريزى الخطط جـ ٢ ٢٧٣
(٤٨) المقريزى المصدر السابق ذكره جـ ٢ ٢٧٥
(٤٩) المقريزى الخطط جـ ١ ٣٦٢
(٥٠) الدكتور محمد جمال الدين سرور المرجع السابق ذكره ٦٧
(٥١) المقريزى اتعاظ الحنفا جـ ١ ١٦٨ - ١٧٠
(٥٢) الدكتور جمال الدين الشيال تاريخ مصر الإسلامية جـ ٢ ١٣٥

كان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط [٥٣] العاصمة الفاطمية الجديدة ، ويشتمل على مكان مسقوف للصلاة يسمى المقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحنا ، وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة ، وأنشأ بها محراباً يسمى الآن القبلة القديمة . وكان الخلفاء الفاطميون منذ عهد المعز يحتفلون بإقامة الصلوات يوم الجمعة والأعياد في الجامع الأزهر ، وكثيراً ما كانوا يؤمون الناس في الصلاة ويخطبون فيهم ، وكانت تقام بهذا الجامع إلى جانب الصلوات بعض الحفلات الدينية .

---

(٥٣) الدكتور محمد جمال الدين سرور المرجع السابق ذكره ٦٨

الحالة الإقتصادية

١- **الزراعة** :

اهتم الفاطميون بالزراعة [٥٤] على اعتبار أنها من أهم مصادر الثروة في مصر . وكانت زراعة القمح تشغل الجزء الأكبر من الأراضي المصرية الخصبة التربة ـ وعلى الأخص أنحاء الدلتا والوجه القبلي ـ لأنه الغذاء الرئيسي لأهل البلاد ، أما الذرة فلم تكن معروفة في مصر في ذلك العهد [٥٥] .

وكان الكتان يزرع في الأراضي المنخفضة التي تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة لذلك انتشرت زراعته في الدلتا والفيوم . وأما قصب السكر فقد توسع المصريون في زراعته في العصر الفاطمي وليس أدل على ذلك قول ناصر خسرو [٥٦] الذي زار مصر حوالي سنة ٤٤٠هـ ((وتنتج مصر عسلاً وسكراً)) .

وكانت مصر تشتهر أيضاً بإنتاج أنواع مختلفة من الفواكه ومن أهمها : الكروم ، وتزرع في نواحي مريوط والجيزة والفيوم وقليوب وبعض الوجهين القبلي والبحري ، وكذلك كان شجر النخيل مغروساً في مختلف أنحاء القطر .

وقد ذكر الأدفوى [٥٧] أنه كان يغرس بالصعيد أشجار النخيل على شاطئ النيل من الجانبين الشرقي والغربي . كما قال إن محصول إسنا من التمر بلغ في إحدى السنوات أربعين ألف أردب ، وكانت أسوان أكثر نخيلاً من غيرها من جهات الصعيد . وقد بلغ مجموع محصولها من التمر في سنة واحدة ستة وثلاثين [٥٨] ألف أردب .

---

(٥٤) الدكتور راشد البراوى — **حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ٧٣**
القاهرة – ١٩٤٨م

(٥٥) آدم متز — **الحضارة الإسلامية جـ ٢ ٢٦١**
ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة
القاهرة

(٥٦) الدكتور محمد جمال الدين سرور — **المرجع السابق ذكره ١٣٦**

(٥٧) الأدفودى — **الطالع السعيد ١٠ – ١١**

(٥٨) الدكتور راشد البرواى — **المرجع السابق ذكره ٩٨**

أيضاً اهتمت الحكومة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أسطولها الحربي ومراكبها التجارية ، ومن أشهر مناطق الغابات [٥٩] في العصر الفاطمي : البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص . وبلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشاؤا إدارة خاصة تشرف على أمورها ، كما أقاموا بمشروعات عظيمة لتنظيم ري الأراضي نخص بالذكر منها الخليج الذي أشرف على حفره أبو المنجا متولي ديوان جهات الدلتا الشرقية في عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان هذا الخليج يخرج من النيل لري الأراضي الواقعة في شرق فرع دمياط [٦٠] .

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالري والزراعة ، فلم يخل عهدهم من أحداث أثرت في الإنتاج الزراعي ، فكثيراً ما نقص فيضان [٦١] النيل عن المستوى العادي اللازم لري الأراضي كما حدث سنة ٤٥٧هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، حيث حل بالبلاد المصرية الشدة العظمى التي استمرت سبع سنوات ، وكان من مظاهر إهمال الزراعة وارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية وانتشار الوباء ، وقد اقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والحروب الأهلية ، فلما ولى بدر الجمالي الوزارة سنة ٤٦٦هـ قضى على المفسدين ووجه اهتمامه إلى إصلاح حال البلاد ، فسادت الطمأنينة وعنيت الحكومة الفاطمية بالترع والجسور ، فزاد خراج مصر في أيامه إلى أكثر من ثلاثة ملايين دينار [٦٢] .

وكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة تنطوى على التسامح والرعاية فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين ، بل حددوا مقداره ، كما حرصوا منذ امتد نفوذهم إلى مصر على عدم انتزاع الأراضي من أيدي أصحابها ، فقد جاء في عهد الأمان الذي أعطاه جوهر للمصريين : « ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ، في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم » [٦٣] .

---

(٥٩) الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي جـ٣ ٤٠٠

(٦٠) القلقشندى صبح الأعشى جـ٣ ٣٠٥ – ٣٠٦

(٦١) الدكتور راشد البراوى المرجع السابق ذكره ١٦٩

(٦٢) المقريزى الخطط جـ١ ١٠٠

(٦٣) المقريزى الخطط جـ١ ٨٥

أما الأراضي التي تمتلكها الدولة [٦٤] ، فأخذوا في توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم . وكانت هذه الأراضي إذا نزلت عنها الحكومة صارت ملكاً للمقطعين ، ولكن إذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح إقطاع استغلال ، وهذا النوع من الإقطاع كان يعطى للأجناد في العصر الفاطمي [٦٥] .

وقد أدخل تعديل كبير على الاقطاعات في عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالي ، ذلك أنه لما شكا صغار المقطعين من قلة دخل اقطاعهم عل حين زاد المتحصل من اقطاعات الأمراء ، أمر الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بحل جميع الاقطاعات وإعادة توزيعها ، ولم يتعرض للأرض المملوكة ، بل أبقاها في أيدي ملاكها ومن قوله في هذا الشأن : « إن كل من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل في الإقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره » وكان أكثر المقطعين في ذلك الوقت من الأجناد ، وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الجمالى بأن يستغلوا في اقطاعهم مدة ثلاثين سنة ، وفي ذلك يقول المقريزي : « وكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد » [٦٦] . وكان المقطع في أواخر العصر الفاطمي يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان مقدارها دينار وخمسة قراريط ، وإذا انقطعت مدة الإقطاع ، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها ، ولا ينقل شيئاً من المنشآت التي أقيمت عليها [٦٧] .

٢- الصناعة :

استعملت أساليب جديدة في الصناعة في العصر الفاطمي وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأمور في البلاد ، فضلاً عن حياة الترف والبذخ التي سادت المجتمع في بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط . وكان لهذه الحياة تأثير كبير في الإنتاج الصناعي ، فأصبح عمل المصانع ليس مقصوراً عل إمداد الجيش والأسطول الفاطمي بالسلاح والعتاد الحربي والملابس لطوائف الجند ، بل تنوعت لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم .

---

(٦٤) الدكتور محمد جمال الدين سرور المرجع السابق ذكره ٦٨

(٦٥) المقريزى الخطط جـ١ ٨٥

(٦٦) المقريزى الخطط جـ٢ ٨٣

(٦٧) ابن مماتى قوانين الدواوين ٣٩٧

وكان من الصناعات التي ازدهرت في هذا العصر وتنوعت أصنافها : صناعة النسيج ، إذ بلغت من الرقى في مصر بحيث أصبح من اليسير صنع بعض الأقمشة الصوفية فامتازت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية الرفيعة [٦٨] . وكانت بعض منسوجات الصعيد الصوفية تصدر إلى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم المصري [٦٩] .

وكانت القاهرة في عهد الفاطميين مركزاً هاماً لصناعة المنسوجات الحريرية [٧٠] وقد أنشأ المعز لدين الله فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفي الدولة على اختلاف درجاتهم ، وكان يصنع بهذه الدار أيضاً كسوة الكعبة ، والخلع [٧١] التي يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة في عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل [٧٢] . كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج فأنشاؤا عدة مصانع لإنتاج الأنواع الفاخرة . وكانت دار الديباج [٧٣] كما أن خزانة البنود التي بناها الخليفة الظاهر الفاطمي كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب [٧٤] .

وكان لصناعة المنسوجات الكتانية [٧٥] شأن كبير في مصر في العصر الفاطمي ويرجع السبب في ذلك إلى وفرة الكتان في منطقة دمياط وشرق الدلتا . ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة : الفيوم وتنيس ودمياط وشطا ودبيق ، وينسب إلى هذه المدينة الأخيرة أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى ، وكان يصنع في دبيق قماش ثقيل جيد النسيج ، والعمائم الطويلة التي يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع [٧٦] .

---

(٦٨) آدم متز — الحضارة الإسلامية جـ ٢ ٢٩٦

(٦٩) ناصر خسرو — سفر نامة ٧٠

(٧٠) الدكتور محمد جمال الدين سرور — تاريخ الدولة الفاطمية ١٣٩

(٧١) المقريزى — الخطط جـ ١ ٤٦٥

(٧٢) آدم متز — المرجع السابق ذكره جـ ٢ ٢٩٦

(٧٣) المقريزى — المصدر السابق ذكره جـ ١ ٤٦٥

(٧٤) المقريزى — المصدر السابق ذكره جـ ١ ٤٣٣

(٧٥) آدم متز — المرجع السابق ذكره جـ ٢ ٢٩٦

(٧٦) المقريزى — الخطط جـ ١ ٢٢٦

كذلك تقدمت صناعة الزجاج (٧٧) والخزف في العصر الفاطمي . وكانت الفسطاط من أكثر مراكز صناعة الزجاج . ومن البلاد التي اشتهرت بهذه الصناعة أيضاً الفيوم والأشمونين والإسكندرية (٧٨) ، أما الخزف فقد أشار ناصر خسرو إلى أن المصريين كانوا يصنعون أنواعاً مختلفة منه ، وبلغ من انتشار استعماله في مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كان يضعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلاً من الورق (٧٩) .

٣- التجارة :

ازداد النشاط التجاري في الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الاقطاعات ، ويكثر توافد الناس . وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلي والبحري ، واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل ، وفضلاً عن ذلك فإنه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب (٨٠) .

ولم يؤثر إنشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجاري ، لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون ، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار في الفسطاط أقل منها في حاضرة الخلافة الفاطمية (٨١) .

وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم في العصر الفاطمي ، فكثرت بها المتاجر والأسواق ، كما كان يأتي إليها كثير من المراكب ، يقول ناصر خسرو (٨٢) وفي وصفه لها إنه كانت بها الأسواق التي تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة ، وبها أيضاً كثير من الحانات .

---

(٧٧) الدكتور محمد جمال الدين سرور — المرجع السابق ذكره ١٣٩

(٧٨) المقريزى — الخطط جـ ١ ٢٢٦

(٧٩) زكى محمد حسن — كنوز الفاطميين ١٥٠ – ١٥١

(٨٠) الدكتور محمد جمال الدين سرور — المرجع السابق ذكره ١٣٩

(٨١) الدكتور راشد البراوى — حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ١٩٩

(٨٢) ناصر خسرو — سفر نامه ٥٨ – ٥٩

ومن مراكز التجارة الداخلية : مدينة دمياط التي تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها ، وأصبحت الميناء المصري الوحيد في الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية ، فقامت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل . وكان لأسوان أيضاً شأن كبير في التجارة الداخلية بسبب ورود تجارة النوبة والسودان إليها [٨٣] .

أما التجارة الخارجية : فقد اتسع نطاقها [٨٤] مع البلاد الآسيوية والأوربية فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين ، كما أن حاجتها إلى المواد الخام كالخشب والحديد حملتها على استيرادها من بعض الدول الأوربية ، وصارت الإسكندرية من المراكز الرئيسية للتجارة ، فتنتقل منها البضائع الآسيوية إلى أوربا وترد إليها السفن الأوربية محملة بالسلع اللازمة للصناعة المصرية . ولم تكتف مصر بأن تكون طريقاً لمرور الغلات الأسيوية ، بل كان لديها ما تصدره إلى البلاد الأوربية كالنطرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها [٨٥] .

وقد قامت بين مصر والمدن الإيطالية وبخاصة جنوه والبندقية علاقات تجارية ، فأخذت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد إلى الموانئ المصرية ، كما أقدم تجارة جنوه على التعامل مع الفاطميين في النصف الأخير من القرن الحادي عشر ، وصارت سفنهم تبحر إلى الموانئ المصرية ، وقد استجاب بعض الخلفاء في أواخر العصر الفاطمي لرغبة هؤلاء التجار في الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعاً لهم على الاتجار مع بلادهم [٨٦] .

وعلى الرغم من المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية فإن العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع ، فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط [٨٧] . كما أن مصر كانت تستورد بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال ، وقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن كثيراً من السلع التي رآها وأعجب بها في أسواق مدينة مصر كانت من واردات بلاد الروم .

---

(٨٣) الدكتور راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ١٩٩ – ٢٠٠

(٨٤) الدكتور راشد البراوى المرجع السابق ذكره ٢١٣

(٨٥) الدكتور راشد البراوى المرجع السابق ذكره ٢١٣ – ٢٤٣

(86) Heyd Hist du commerce du levant au Mayen Age Tome 1 . P 391

(87) Heyd Hist du commerce du levant au Mayen Age Tome 1. P 58

وقد أذنت الحكومة الفاطمية في مصر للتجار الإيطاليين (٨٨) وغيرهم من الأوربيين بإنشاء الفنادق الخاصة بهم ، وكان لكل جالية أجنبية بالإسكندرية فندق . كذلك أقيمت في مصر في ذلك العصر الوكالات وهي كالفنادق (٨٩) وينزل بها التجار القادمون من بلاد الشرق الإسلامية ، فيذكر بن ميسر (٩٠) أن الوزير المأمون البطائحى أمر سنة ٥١٦هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار .

وكان هناك بجانب المنشآت التي أعدت للتجارة أبنية أخرى أطلق عليها اسم القياسر (٩١) . وكانت القيسارية عبارة عن مجموعة من المباني العامة ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن وكان في بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين وعلوها رباع يقيم فيها الصناع والتجار بأجر (٩٢) ، وقد أنشئ بمصر في العصر الفاطمي عدد قليل من هذه القياسر (٩٣) .

٤- المعاملات التجارية :

فلم تكن النظم التجارية موحدة (٩٤) في الدولة الإسلامية ، ففي مصر والشام شاع استعمال الدنانير الذهبية ، أما في بلاد الفرس والعراق فعملتها الجارية الدراهم الفضية ، واستمر الدينار في مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمي ، غير أن جوهر القائد بادر إلى سبك دنانير جديدة أطلق عليها المعزية ، وأبقى التعامل بالدينار الراضي (نسبة إلى الخليفة العباسي الراضي) .

ولما عهد المعز لدين الله الفاطمي (٩٥) في أوائل سنة ٣٦٣هـ إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج ، صار ابن كلس يجبى خراج الدولة بالدينار المعزى ، فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضي . ومن ذلك يتضح لنا كيف حملت الحكومة الفاطمية أهالي البلاد المصرية عل التعامل بنفوذها (٩٦) .

---

(٨٨) الدكتور محمد جمال الدين سرور   المرجع السابق ذكره ١٤١
(٨٩) المقريزى   الخطط جـ ٢ ٩٣
(٩٠) ابن ميسر   تاريخ مصر ٦٢
(٩١) المقريزى   الخطط جـ ٢ ٨٦
(٩٢) المقريزى   الخطط جـ ٢ ٨٧
(٩٣) الدكتور راشد البراوى   المرجع السابق ذكره ٢٧١ – ٢٧٢
(٩٤) الدكتور محمد جمال الدين سرور   المرجع السابق ذكره ١٤٢
(٩٥) الدكتور حسن إبراهيم حسن   الدولة الفاطمية ٥٤٩
(٩٦) الدكتور محمد جمال الدين سرور   المرجع السابق ذكره ١٤٢

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل فأصدرت دراهم جديدة في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار (٩٧) . ومن الثابت أن ضرب الدراهم الفضية في ذلك العهد إنما أريد به تيسير التعامل في السلع القليلة الثمن . وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية (٩٨)

---

(٩٧) انستاس الكرملى　　النقود العربية وعلم النميات ٥٨

(٩٨) انستاس الكرملى　　المرجع السابق ذكره ٥٨ – ٥٩

الحياة الاجتماعية والقاهرة

اتسمت الحياة الاجتماعية بمصر في العصر الفاطمي مظاهر خاصة (٩٩) ، كما تقبلت بين ألوان من البذخ والترف قل أن نجدها في عصر آخر من عصور مصر الإسلامية . وقد تجلى بذخ الخلفاء فيما ذكره المقريزي (١٠٠) عن خزائن الفرش والأمتعة والجواهر والخيام والشراب . كما نستدل أيضاً على ترفهم من القصور التي بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرتهم . ومن أشهرها القصر الشرقي الكبير . وكان به عدة أبواب منها : باب الذهب وتعلوه منظرة ، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة ، يقف فيها الجنود في يومي العيدين ، وتعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وقد أسس العزيز بهذا القصر قاعة الذهب التي يجتمع فيها مجلس الملك (١٠١) وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية .

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون عيشة الترف (١٠٢) ، فجعل يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي في قصره مطابخ خاصة له ولاضيافه ، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه ، كما اتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ويتقلدون السيوف ويتمنطقون بالمناطق (١٠٣) . كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مترفاً (١٠٤) في حياته ، فأتخذ مسكنه في دار الملك التي بناها سنة ٥٠١هـ وجعل فيها محال خاصة تقام فيها الأسمطة في الأعياد .

وأتخذ في أحد أبهائها مجلساً ، يجلس فيه للعطاء ، وقد وجد في هذه الدار بعد وفاته ما لا يحصى من الأدوات .

وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي مولعاً بالبساتين ، فبنى لأحدها سوراً يشبه سور القاهرة ، وحفر به بركة كبيرة ، كما بنى في وسط هذا البستان منظرة على أربعة أعمدة من الرخام ، وزرع حواليها شجر النازنج ، وجلب إليه كثيراً من الطيور المسوعة وسرح فيه كثيراً من الطواويس (١٠٥) .

---

(٩٩) الدكتور محمد جمال الدين سرور المرجع السابق ذكره ١٤٣
(١٠٠) المقريزى الخطط جـ ١ ٤١٦ – ٤٢٥
(١٠١) المقريزى المصدر السابق ذكره جـ ١ ٣٨٥ – ٣٨٦
(١٠٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ٦٣٣
(١٠٣) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٢ ٤٤١
(١٠٤) ابن ميسر تاريخ مصر ٥٨
(١٠٥) المقريزى الخطط جـ ٢ ٣٧٩

أهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية (١٠٦) في شئ كثير من الأبهة والعظمة فمنها عيد الفطر وعيد الأضحى ورأس السنة الهجرية ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد أمير على بن أبى طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد السيدة فاطمة الزهراء ويوم عاشوراء ، هذا إلى مواسم أخرى ، وهى ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه . وكان يقام في ليلة عيد الفطر بالإيوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم ، يبلغ طوله نحو ثلاثمائة ذراع في عرض سبعة أذرع ، وتنشر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية ، فإذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والإيوان على مصاريعها ، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخليفي ، وتناولوا مما عليه من الطعام بمشهد من الخليفة ووزرائه (١٠٧) وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة في موكبه إلى الصلاة . وفي ذلك يقول المقريزي : ((وفي يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب والعسكر في زيه ، من الأتراك والديلم والعزيزية والإخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب وعلى الجانب السروج وخرج بالمظلة الثقيلة بالجواهر وبيده قضيب جده عليه السلام ، فصلى على رسمه وانصرف)) . وإذا ما عاد الخليفة من الصلاة ، وجد سماطا أخر فيجلس وأمامه مائدة من فضة يقال لها المدورة

وكانت توضع عليها أواني الذهب والفضة الزاخرة بألوان الطعام ، وقبالتها سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو ، نثرت عليه الأزهار والرياحين وصفت على جانبيه الأطباق الحافلة بأنواع الطيور والحلوى وكان يجلس إليه رجال الدولة والعظماء [١٠٨] . أما عيد الأضحى فيحتفل في أول يوم منه بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو الذي اتبع في عيد الفطر ، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه في إجراءات النحر . وكان الخليفة إذا انقضى اليوم الثالث خلع على وزيره ثوبه الأحمر الذي كان يرتديه يوم العيد [١٠٩] .

---

(١٠٦) الدكتور محمد جمال الدين سرور	المرجع السابق ذكره ١٤٥
(١٠٧) ابن تغرى بردى	النجوم الزاهرة ٤ / ٩٧
(١٠٨) المقريزى	الخطط ٢ / ٣٧٩
(١٠٩) القلقشندى	صبح الأعشى ٣ / ٥٠١ – ٥١٢

وكان احتفال الفاطميين بعيد رأس السنة الهجرية مثال الروعة والبهاء وقد أورد لنا المقريزى [١١٠] وصفا لمراسم الاحتفال بهذا العيد فذكر أنهم كانوا يعدون العدة للاحتفال به منذ العشر الأخير من شهر ذي الحجة في كل سنة ، حيث يبدأ المستخدمون والعمال في إعداد آلات موكب الخلافة من الأسلحة وغيرها . وإذا ما أصبح اليوم التاسع والعشرون من هذا الشهر ، تأهب الخليفة لعرض الخليل ، فيخرج راكباً من قصره ، وينزل بمكان يقال له السد حيث يجلس في مكان محجوب بالستائر .

أما الوزير فيركب في هذا اليوم من داره وبصحبته الأمراء ، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء وظل راكباً حتى باب الدهاليز بقصر الخليفة حيث ينزل هناك ويسير محاطاً بحاشيته وغلمانه وأولاده وأقاربه ثم يجلس في المكان المعد له ، وحينئذ ترفع الستائر التي بجانبه فيرى الخليفة جالساً ، فيقف الوزير ويسلم عليه ، ثم يتلو القراء بعض آيات مناسبة لعيد رأس السنة . وبعد أن يتموا تلاوتهم يشرع الخليفة في عرض الخيل . وإذا ما فرغ من عرضها ، عاد القراء إلى تلاوة بعض آيات الذكر الحكيم إيذانا بانتهاء الحفل .

وفى صباح أول المحرم يركب الوزير ، مرتدياً الثياب الفاخرة ومتقلداً سيفاً من الذهب ، إلى قصر الخليفة ، وبين يديه الأمراء ركبانا ومشاة وأمامه أولاده واخوته . فإذا وصل القصر دخل

من بابه راكباً إلى دهليز يعرف بدهليز العمود حيث يترجل على مصطبة هناك وبعد قليل يرفع صاحب المجلس الستر ، فيظهر الخليفة في ثيابه البيضاء متقلداً السيف وبيده قضيب الملك مكسواً بالذهب المرصع بالدر والجواهر وحينئذ يشرع الأمراء في الخروج وبعدهم الوزير الذي يركب دابته ويقف قبالة القصر بهيئته ثم يخرج الخليفة وحواليه الأستاذون . ويبدأ الموكب الخلافي في السير ، يتقدمه الأمراء وطائفة من العسكر والأساتذة المحنكون (١١١) ثم الخليفة يحيط به مقدمو صبيان الركابة متقلدين سيوفهم ويزيد عددهم على ألف رجل . ويسير خلف دابة الخليفة فريق من صبيان الركاب لحفظ أعقابه ، ثم يأتى الخليفة وفى ركابه قوم من أقوياء الأجناد ، ويبلغ عددهم خمسمائة ، خلفه الطبول والصفوح ، وطوائف الجند من الرجالة والفرسان ، وإذا وصل الخليفة إلى الجامع الأقمر بالقماحين ، سارع الوزير إلى الوقوف بين يديه ، فيحييه الخليفة بإشارة خفيه ثم يعود الموكب الخلافي إلى القصر .

---

(١١٠) المقريزى الخطط ١ / ٤٤٦ – ٤٥٠

(١١١) القلشندى صبح الأعشى ٣ / ٣٨٤ – ٣٨٥

كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بالاحتفال بليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم احتفالاً باهراً يليق بمكانته العظيمة في نفوس المسلمين ، وكان الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية ، لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم في تكريم النبي صلى الله عليه وسلم ، رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجري أن يحتفلوا بمولده (١١٢) . ومن المظاهر الدينية المألوفة في هذا العيد قراءة السيرة في المساجد .

وكانت ليالي الوقود وهي التي تسبق أول ومتصف شهري رجب وشعبان ومن أشهر المواسم التي اختصت بها الدولة الفاطمية ، ففيها تضاء جميع المساجد بعد غروب الشمس وتبدو القاهرة في حلل بديعة من الأنوار ، ويخرج الناس إلى الجامع الأزهر الذي تضاء حافاته بالمشاعل ويعقد في صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة (١١٣) وكان جمهور المسلمين في مصر يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بشهر رمضان ، واستمر الاحتفال بها إلى وقتنا الحاضر .

وكان شهر رمضان من أهم المواسم الدينية التي عنى الفاطميون بإحيائها ، فيحتفل في أول يوم منه بركوب الخليفة من القصر الشرقي الكبير ويصحبه وزيره وحوله حرسه الخاص ، فيخترق

موكبه شوارع القاهرة ومصر حتى جامع عمرو بن العاص الذي كان يعرف أذاك بالجامع العتيق ، فإذا وصل إلى بابه وجد الخطيب في انتظاره ، وبيده المصحف المنسوب خطه إلى على بن أبي طالب ، فيتناوله الخليفة ويقبله عدة مرات ، ثم يأمر بتوزيع بعض المنح المالية على خطيب المسجد ومؤذنه وإذا ما انتهى الخليفة من أداء الصلاة بالمسجد ، استأنف سيره إلى دار الملك . وكان ركوب الخليفة في غرة رمضان يقوم عند الفاطميين مقام الاحتفال برؤية الهلال عند أهل السنة ، وكان يهدى في أول شهر رمضان للأمراء وأرباب الدولة أطباق من الحلوى بوسط كل منها صرة من ذهب ، كما كانت ترسل مثل هذه الأطباق إلى أفراد أسرهم .

---

(١١٢) آدم متز — الحضارة الإسلامية ٢٥٠

(١١٣) المقريزى — الخطط ١ / ٤٦٦ – ٤٦٧

كانت المآدب والأسمطة مظهراً من مظاهر الاحتفال بالمواسم والأعياد في العصر الفاطمي بمصر ، فقد عنى الفاطميون بتنظيمها عناية خاصة ، كما بالغوا في إعدادها سواء أكان ذلك في المساجد أو في قصر الخليفة أو في دار الوزير ، ففي قصر الخليفة كانت تقام الأسمطة في المكان المعروف بقاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك ، وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أول من سن تلك السنة وحذا خلفاؤه حذوه ، فكانوا يقيمون الأسمطة من اليوم الرابع من شهر رمضان إلى السادس والعشرين منه ، وكان يدعى إليها قاضى القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة من القواد والموظفين . ويمثل الخليفة فيها الوزير فإن تغيب ناب عنه ابنه أو أخوه . وكانت أصناف المأكولات من الوفرة بحيث يستطيع الناس أن يأخذوا منها ما يريدون . وبلغ ما ينفق على سماط شهر رمضان ثلاثة آلاف دينار .

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب في الجمع الثلاث من رمضان إلى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمرو بن العاص على التوالى لصلاة الجمعة ، ويشرف صاحب بيت المال في كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذي يصلي فيه الخليفة صلاة الجمعة . وكانت توضع في المقصورة ثلاثة طنافس دبيقية أو سامانية بيضاء بعضها فوق بعض ، وكان ينصب على جانبي المنبر ستران ، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة وعلى الأخر البسملة والفاتحة وسورة ((المنافقون)) كتابة واضحة .

وكان الخليفة يرتدى [١١٤] في هذا اليوم ثوباً من الحرير الأبيض ، ويتعمم بعمامة من هذا النوع من الحرير ويحمل قضيب الملك بيده ويصل إلى الجامع في موكب حافل يحف به

بعض الأشراف وعدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الأخرين [١١٥] ويتبع هؤلاء جمع غفير من الناس ويدخل الخليفة المسجد يحيط به قراء الحضرة الذين كانوا يصحبونه من القصر وهم يرفعون أصواتهم بتلاوة القرآن بنغمات شجية ، ثم يستريح قليلاً في قاعة الخطابة التي كان يحرسها قائد القواد وفريق من حرسه ، ويظل جالساً في هذه القاعدة حتى ينتهى الأذان ، فيدخل إليه قاضى القضاة ويقول له ((السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ، ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله)) فيصعد الخليفة المنبر ويلقــي خطبة قصيرة تعد لهـذا الغرض في ديوان الإنشاء ، يتلو فيها آية من القرآن ثم يصلى على أبيه وجده محمد صلى الله عليه وسلم

(١١٤) الدكتور محمد جمال الدين سرور الدولة الفاطمية في مصر ١٤٩

(١١٥) القلقشندى صبح الأعشى ٣ / ٥١١

ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً ، ويترسل بدعوات فخمه تليق به ، ويختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمخالفين ، وإذا ما فرغ من خطبته قال اذكروا الله يذكركم ، ثم يؤم المصلين فيقرأ في الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر يمين المحراب ، وفي الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر . وحينما يكبر ، يبلغ الوزير عنه ثم قاضى القضاة ثم المؤذنون .. فإذا ما انتهت الصلاة خلا المسجد من الناس وخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعي الدعاة عن يساره وحرسه الخاص ، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التي اتخذها في ذهابه إلى الجامع [١١٦] وكانت هذه الرسوم تتكرر في صلاة الجمعتين الأخيرتين من رمضان .

وكان الشعب المصري يستقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور إلا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام ، تعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد في رثاء الحسين رضى الله عنه وفي نفس اليوم يقام سماط يمسى سماط الحزن في بهو بسيط ، وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن يحضره الخليفة ملثماً ومرتدياً الثياب القائمة [١١٧] .

كذلك أولى الخلفاء الفاطميون الاحتفال بوفاء النيل كثيراً من اهتمامهم فكانوا يركبون إلى المقياس بالروضة إذا ما بلغ الفيضان ستة عشر ذراعاً . وقد ذكر ناصر خسرو أنه كان يحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة وفى ركابه عشرة آلاف فارس ، يمتطون الخيول المطهمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة ، ويلي هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها من الجند [١١٨] .

وكان موكب الخليفة يخترق شوارع القاهرة ومصر ، يحف به أفراد الشعب حتى يأتي منظرة ((دار الملك)) بالقرب من المقياس ، فيركب منها في العشارى الخاص بصحبة وزيره وكبار رجال حاشيته قاصداً المقياس ، فإذا دخله صلى هو والوزير ركعتين ، ثم يضع الخليفة بيده الزعفران والمسك في إناء خاص يسلمه لصاحب بيت المال الذي يناوله بدوره للموظف المختص بالإشـــراف على المقيـاس ، فيقـوم هـــذا الموظف بتخليق المقيــاس ((أي تعطيره)) بينما يتنـاوب قـراء الحضرة تـلاوة القـرآن ثم يخــرج الخليفة راكباً فى العشارى ، فإذا ما وصل

---

(١١٦) المقريزى المصدر السابق ذكره ٢ / ٢٨٠ – ٢٨١

(١١٧) حسن إبراهيم حسن الفاطميون في مصر ٤٦٢

(١١٨) حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي ٢ / ٦٦٩

دار الملك عاد بموكبه إلى القصر [١١٩] وكانت تقدم الحلل إلى الوزراء وبعض الأمراء والأشراف وغيرهم في عيد الفطر ، كما كان الخلفاء يجودون على كبار رجال الدولة بالخلع ، في غرة رمضان وفي الجمع الثلاث الأخيرة منه وفي وفاء النيل ، وكان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان الذين يحضرون إلى القاهرة في تلك المواسم جللا من الحرير الخالص بعضها مزركش بالذهب [١٢٠] . وكانت الكسوات التي تخلع على وجوه الدولة ترفق برقعة من ديوان الإنشاء ، وقد أورد لنا المقريزى [١٢١] صورة منها وقد جاء فيها ((لم يزل أمير المؤمنين منعماً بالرغائب ، مولياً إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب . وإنك أيها الأمي لأولاهم من ذلك بجسيمة ، وأحراهم باستنشاق نسيمه . إذ كنت في سماء المسابقة بدراً ، وفي موائد المناصحة صدراً ، وممن أخلص في الطاعة سراً وجهراً وحظى في خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفا وسير له ذكراً ، ولما أقبل هذا العيد السعيد ، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم . ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه في المواسم التي تجاريه بكسوات على حسب منازلهم ، تجمع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مطمح للآمال ، وكنت من أخص الأمراء المقدمين)) .

كذلك كانت توزع في عيد الفطر النقود الذهبية والفضية والملابس والأطعمة على الأضياف والموظفين على اختلاف درجاتهم ، هذا إلى ما كان يمنحه كبار الموظفين في غرة المحرم من النقود الذهبية التي كانت تضرب خصيصاً لهذا اليوم في العشر الأخير من ذي الحجة وتسمى نقود الغرة ، وهى دنانير رباعية ودراهم خفاف مدورة . وكان هؤلاء الموظفون يقبلونها

على سبيل التبرك من الخليفة [١٢٢] . وقد اعتاد الخلفاء عند ركوبهم إلى المناظر [١٢٣] أن يمنحوا رجال القصر والشعراء والمؤذنين والقراء ومن إليهم في الحاشية المنح الوفيرة فيحمل أحد الموظفين كيساً من الحرير فيه خمسمائة دينار لتوزع في الطريق الذي يجتازه الخليفة على الرجال والنساء والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبي الطريق .

---

(١١٩) القلقشندى — صبح الأعشى ٣ / ٥١٢

(١٢٠) عبد المنعم ماجد — نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١٠٦
دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٣م

(١٢١) المقريزى — الخطط ١ / ٤١٢

(١٢٢) القلقشندى — صبح الأعشى ٣ / ٥٠٥

(١٢٣) آدم متز — الحضارة الإسلامية ٢ / ٢٢١

كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمي [١٢٤] بمصر ، فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات وكان معظم المغنيات من الجواري . فيحكى أنه اشتريت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر ، فغنت له ولجلسائه ، ولم يزل غناؤها يزيده طرباً حتى قال لها : تمنى ما شئت ، فتمنت أن تغنى ما غنت ببغداد فلم يجد الأمير بدا من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد .

وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة في أوائل عهد الحاكم بأمر الله ، فلما تجلى الانحلال الاجتماعي من جراء هذه المجالس ، أصدر الحاكم قوانين يمنع بعضها سماع الموسيقي ويحرم البعض الأخر الغناء والملاهي التي تعد خطراً على الأخلاق العامة [١٢٥] على أن هذه المجالس ما لبثت أن عادت إلى الظهور بعد وفاة الحاكم فقد أولع بعض من جاء بعده من الخلفاء بالغناء والموسيقى ، فكان الخليفة المستنصر بالله يميل إلى سماع المغنيات . وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان من بين مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى على بغداد وإقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد بعض الأبيات فأعجب المستنصر بغنائها وأجزل لها العطاء [١٢٦] .

وكان اللعب بالخيال معروفاً بمصر في العهد الفاطمي فيخرج الناس في بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل والسماحات ، كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة ، وبلغ من حذق بعض الناس المحاكاة أنهم كانوا يقلدون طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم ، وكان الأهالي يقبلون على سماع نوادرهم [١٢٧] .

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد في قصور الخلفاء والوزراء والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة . كما كانت المجالس الخاصة تعقد في داخل المنازل لسماع النواد والأحاديث التي تتجلى فيها اللباقة العقلية ، لقضاء أوقات فراغهم في لعب الشطرنج والنرد (١٢٨) .

---

(١٢٤) المقريزى الخطط ٢ / ٢٨٧

(١٢٥) المقريزى المصدر السابق ذكره ٢ / ٢٨٧

(١٢٦) المقريزى الخطط ١ / ٢٠٧

(١٢٧) المقريزى الخطط ١ / ٢٠٧

(١٢٨) آدم متز الحضارة الإسلامية ٢ / ٢١٤ – ٢١٥

الحياة الثقافية

اهتم الفاطميون منذ استقر سلطانهم في مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلاً عن الثقافة المذهبية (١٢٩) التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية كالفقه والتفسير . وكان للجامع الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية في مصر . وقد ظهرت فكرة الدراسة به في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي حين قام قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان المغربي بشرح كتاب ((الاقتصار)) الذي وضعه أبوه ويشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت ، كما أن أخاه أبا عبد الله محمد بن النعمان جلس في ربيع الأول من سنة ٣٨٥هـ بقصر الخليفة لقراءة علوم أهل البيت (١٣٠) .

وفى أوائل عهد العزيز بالله جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر وقرأ على الناس رسالة ألفها في الفقه الشيعي على المذهب الإسماعيلي تسمى الرسالة الوزيرية ، تضمنت ما سمعه في ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز وكان يفد إلى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة . وصار بن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره ، يقرأ فيها مصنفاته على الناس .

على أن الجامع الأزهر ما لبث أن فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة في مصر منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨هـ على الخليفة العزيز بتحويله إلى معهد للدراسة بعد

أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية ، فأستأذنه في أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس ، على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرزاقاً شهرية ثابتة ، وأنشأ لهم دار للسكنى بجوار [١٣١] الأزهر ، وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمي إلى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله ، فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم .

---

(١٢٩) الدكتور حسن إبراهيم حسن — الفاطميون في مصر ١٢٧

(١٣٠) الدكتور محمد جمال الدين سرور — تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ٢٣٠
دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٧٨م

(١٣١) الدكتور حسن إبراهيم حسن — الفاطميون في مصر ١٢٧

كذلك اهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات فألحقوا بالقصر الشرقي الكير مكتبة زودوها بأندر المؤلفات في مختلف العلوم والفنون حتى تميزت على غيرها من مكتبات العالم الإسلامي بما في خزانتها من كتب قيمة .

وكان تجار الكتب يعرضون على موظفي مكتبة القصر أندر الكتب التي يعثرون عليها . وقد روى المقريزي [١٣٢] أن رجلاً أحضر إلى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبري اشتراها بمائة دينار ، فأمر العزيز أمناء المكتبة ، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري ، منها نسخة بخط يده ، كما كان بخزانة العزيز ما يزيد على ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد ، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد .

وكثيراً ما كان الخليفة الفاطمي يزور خزانة الكتب في القصر الشرقي فيأتي راكباً ثم يترجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة ، ويمثل بين يديه أمين الخزانة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ، ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص [١٣٣] .

وكان بمكتبة القصر أربعون خزانة كتب في سائر العلوم وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء .

ومن المراكز الثقافية بمصر دار الحكمة [١٣٤] التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة . وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم ، حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم ولآداب ، من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب وسمح لسائر الناس على طبقاتهم بالتردد عليها . وفي ذلك يقول المقريزي [١٣٥] ((وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد

---

(١٣٢) المقريزي الخطط ١ / ٤٠٨

(١٣٣) المقريزي الخطط ١ / ٤٠٩

(١٣٤) الدكتور محمد جمال الدين سرور الدولة الفاطمية في مصر ١٥٥

(١٣٥) المقريزي الخطط ١ / ١٥٨

قط من الملوك ، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر)) .

كان الطلاب يتلقون في دار الحكمة إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم ، وهكذا اختلفت مناهج التعليم في هذا المعهد عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة ، إذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية ، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والنجامة ، من أمثال بن يونس المنجم وأبي على الحسن بن الهيثم وعلى بن رضوان [١٣٦] .

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة وما كان لها من مناهج منوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيراً من أعلام المشرق من أمثال الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، والداعي الحسن بن الصباح اللذين وفدا إلى مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي .

ظلت دار العلم مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦هـ حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي بإغلاقها بسبب ما وصل إليه من أن رجلين

يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهى الشافعي والحنفي والمالكي ، يترددان على دار العلم ، وأن كثيراً من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب . على أن فترة إغلاق دار العلم لم يطل أمدها ، فقد أعادها الخليفة الآمر إلى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل (١٣٧) .

فقدت مكتبة القصر الفاطمي عدد غير قليل من الكتب القيمة التي كانت بها في غضون الشدة العظمى التي حلت بمصر في عهد المستنصر بالله فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما في خزانة الكتب (١٣٨) .

---

(١٣٦) الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ٤٢٩

(١٣٧) المقريزي الخطط ١ / ٤٥٩

(١٣٨) زكي محمد حسن كنوز الفاطميين ٢٩

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد بقى في خزائن القصر بعض كتب لم تصل إليها يد العبث ، واستطاع الفاطميون فيما بعد أن يعوضوا بعض ما فقدوه ، فجلبوا إلى مكتبة القصر كثيراً من الكتب الجديدة حتى أصبح في قصر العاضد أخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة .

تجلى نشاط الحركة العقلية في مصر منذ أن أتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم ، ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب ، وأباح لهم جميعاً الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر ، وحذا الخلفاء من بعده حذوه ، فصاروا يعقدون المجالس العلمية والأدبية بقصورهم ويدعون إليها الفقهاء والعلماء والأدباء فيتناظرون بحضرتهم ، ولم تكن هذه المجالس تقل في قيمتها التعليمية عن الدروس التي تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة .

وقد أدى مجيء الفاطميين إلى مصر بمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر إلى ظهور فريقين من العلماء ، يعمل أولهما على تأييدهم ، ويفند الفريق الأخر أراءهم (١٣٩) . واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تأليف الكتب ، وكان لأبى حنيفة النعمان المغربي وأبنائه وهم جميعا من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر في نشر الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية .

وقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب وكان مالكي المذهب كسائر أفراد أسرته ، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي وقدم إلى مصر هو وأبناؤه في ركب المعز ويعد النعمان من أهم

دعائم الدعوة الإسماعيلية ، وله في الفقه الإسماعيلي عدة مؤلفات منها : ((دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام)) وقد استغل النعمان ميوله المذهبية في تأليف هذا الكتاب حتى إننا نراه يضيف إلى قواعد الإسلام الخمس الولاية وهى حب أهل البيت والطهارة [١٤٠] .

وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب دعائم الإسلام في أحكامهم ونهج الوزير يعقوب [١٤١] بن كلس في كتابه ((مصنف الوزير)) منهج كتاب الدعائم وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرمانى داعي الحاكم بأمر الله في فارس في كتابه ((راحة العقل)) حتى جعله في المرتبة التي تلى القرآن والحديث [١٤٢] .

---

(١٣٩) أحمد أمين ظهر الإسلام ١ / ١٨٨
النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٨م

(140) H.Hamdani (J.R.A.S) 1933 P. 369 E

(١٤١) حسن إبراهيم حسن المعز لدين الله ٢٥٨ – ٢٥٩

(١٤٢) حسن إبراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ٤٧٦

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلي وتشجيعهم فقهاءه ، فقد ظهر في عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية نخص بالذكر منهم أبا بكر محمد النعالي المالكي المتوفى سنة ٣٨٠هـ . وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها [١٤٣] وكان فقهاء المذهب السني في مصر يستنكرون تعاليم الفاطميين ولكنهم لا يستطيعون الجهر بذلك .

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب أثره في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر ، فأشتهر من المؤرخين في العصر الفاطمي أبو الحسن على بن محمد الشابشتى ، اتصل بخدمة الخليفة العزيز فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه وتوفى سنة ٣٨٨هـ في أيام الحاكم بأمر الله . ومن مصنفاته كتاب ((الديارات)) أورد فيه أخبارا طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر وما قيل في كل منها من الأشعار [١٤٤] . كما نبغ من المؤرخين في هذا العصر الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحى الذي ولد بمصر سنة ٣٦٦هـ وتوفى سنة ٤٢٠هـ وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته ، وقد تولى في أيامه بعض المناصب الهامة ، وشغف بكتابة التاريخ . وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى ((تاريخ مصر)) ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا . وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزي وأبى المحاسن .

ومن أعلام المؤرخين أبو عبد الله القضاعى الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري وتوفى بها سنة ٤٥٤هـ وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي وقد ولى القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وأوفده هذا الخليفة سفيراً إلى تيودورا إمبراطورة الدولة البيزنطية سنة ٤٤٧هـ ليحاول عقد بينها وبين مصر ، وله عدة مصنفات في الفقه والتاريخ منها ((مناقب الإمام الشافعي وأخباره)) وكتاب في خطط مصر سماه ((المختار في ذكر الخطط والآثار)) يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره وكان هذا الكتاب عوناً للمقريزي على كتابه ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) [١٤٥] .

---

(١٤٣) أحمد أمين ظهر الإسلام ١ / ١٩٧

(١٤٤) ابن خلكان وفيات الأعيان ١ / ٤٢٦

(١٤٥) أحمد أمين ظهر الإسلام ١ / ٢٠٢

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا في أواخر العصر الفاطمي أبو القاسم على بن منجب الصيرفي ، وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه في البلاغة والشعر ، كما برع في الخط وتدرج في بعض الوظائف حتى ولى ديوان الإنشاء للخليفة الآمر بأحكام الله ، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦هـ ومن تصانيفه كتاب ((قانون ديوان الرسائل)) و ((الإشارة إلى من نال الوزارة)) الذي ألفه للمأمون البطائحي وزير الآمر ، وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه وتوفى بن الصيرفي في عهد الخليفة الحافظ سنة ٥٤٢هـ . [١٤٦]

كذلك نبغ في العصر الفاطمي بعض العلماء من أمثال أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم ، وأصله من البصرة ثم أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة في توزيع مياه النيل وكان بن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة في الطبيعيات والرياضيات . وقد ألف نحو مائتي كتاب في الرياضة والطبيعة والفلسفة ، ولم يزل مكبا على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠هـ [١٤٧] .

وأشتهر من الأطباء والفلاسفة أبو الحسن على بن رضوان وهو مصري المولد من الجيزة ، وقد نشأ فقيراً معدماً ، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء في البلاط الفاطمي . وتدل الكتب التي ألفها في الطب على سعة فكره واطلاعه . كما أن له كتباً في الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة [١٤٨] . وكان على بن رضوان مجدداً في صناعته ، فلم يعمد في مؤلفاته

إلى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار ، وظل طيلة حياته في كفاح وعمل متصل إلى أن توفى حوالى سنة ٤٦٠هـ في خلافة المستنصر بالله الفاطمي [(١٤٩)] .

صفوة القول أن الحركة العلمية في العصر الفاطمي سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء ، فتفوقت على مثيلتها في العهد الطولوني والإخشيدي ، كما تميزت بنشاطها ، فكان في مصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء أسهموا في النهضة الثقافية التي تجلت في ذلك العصر .

---

(١٤٦) ياقوت الحموى — معجم الأدباء ١٥ / ٧٩

(١٤٧) أحمد أمين — المرجع السابق ذكره ١ / ٢٠٤

(١٤٨) ابن أبى أصيبعة — عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢ / ١٠٥

(١٤٩) ابن القفطى — إخبار العلماء بأخبار الحكماء ٤٤٣ – ٤٤٤

مصادر ومراجع البحث

١- ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين

كتاب عيون الأنباء في أخبار الأطباء

جزءان

القاهرة ١٢٩٩هـ ـ ١٣٠٠هـ

٢- البكرى (ت ٤٨٧هـ / ١٠٦٤م) أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكرى

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب

طبعة دي سيلان

باريس ١٩١١م

٣- حسن إبراهيم حسن

أ- الفاطميون في مصر

القاهرة ١٩٣٢م

ب- تاريخ الدولة الفاطمية

القاهرة ١٩٥٩م

ج- تاريخ الإسلام السياسي جـ٣

القاهرة ١٩٤٦م

٤- حسن إبراهيم حسن وطه شرف

(أ) عبيد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية

القاهرة ١٩٤٧م

(ب) المعز لدين الله إمام الشيعة

القاهرة ١٩٤٨م

٥- ابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي

وفيات الأعيان

جزءان ـ بولاق ـ ١٢٨٣هـ

٦- زكي محمد حسن

كنوز الفاطميين

القاهرة ١٩٣٧م

٧- عبد المنعم ماجد

نظم الفاطميين ورسومهم في مصر

جزءان ـ القاهرة ١٩٥٣م

٨- ابن عذارى (توفى في أواخر القرن السابع الهجري)

أبو عبد الله محمد المراكشي

البيان المغرب في أخبار المغرب

٣ أجزاء

نشره دوزى ـ باريس ١٩٣٠م

٩- ابن القفطى (ت ٦٤٦هـ / ١٣٤٨م)

جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب

إخبار العلماء بأخبار الحكماء

القاهرة ١٣٢٦هـ

١٠- القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أبو العباس أحمد

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء

١٤ جزءاً ـ القاهرة ١٩١٣م ـ ١٩١٧م

١١- متز آدم Mez Adam

Die Renaissance des Islams

نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة بعنوان

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري

جزءان ـ القاهرة ١٩٤٠م ـ ١٩٤١م

١٢- أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ / ١٣٥٤م) جمال الدين يوسف بن تعز بردى

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣م

١٣- محمد جمال الدين سرور

(أ) تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق

القاهرة ١٩٦٥م

(ب) تاريخ الدولة الفاطمية في مصر

القاهرة ـ ١٩٦٦م

١٤- المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) تقي الدين أحمد بن على

(أ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

طبعة بولاق ـ ١٢٧٠هـ

(ب) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا

تحقيق جمال الدين الشيال

القاهرة ١٩٤٨م

١٥ – ابن منجب الصيرفي (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)
أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على
الإشارة إلى من نال الوزارة
القاهرة ١٩٣٤م
١٦ – ابن ميسر (ت ٦٧٧هـ / ١٣٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب
تاريخ مصر (طبعة هنرى ماسيه Heunri Masae ـ القاهرة ١٩١٩م)
١٧ – ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)
(أ) معجم الأدباء
٢٠ جزءاً ـ طبعة أحمد فريد رفاعى
القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م
(ب) معجم البلدان
١٠ أجزاء ـ القاهرة ١٩٠٦م

المراجع الأجنبية

1- O'leary, (De lacy)
A short History of the Fatimid Khalifate , London 1923
2- Hitti Philip
History of Syria, London 1951
3- Lane. Poole : Stanley
A- A History of Egypt in the Middle Age , London 1901
4- Heyd, W.
Histoire due commerce du levont
Au Mayen – Age 2 Vols – Leipzig - 1925